

## جرتروود بل

أداة الاستعمار البريطاني في العراق

دكتور محمود حسن صالح صني

تسكاد الأنواء تسلط على ( ت . ا . لورنس ) T.E. Lawrence وحده دون غيره ممن قاموا بتنفيذ مخططات بريطانيا في الشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى والسنوات التالية لها ، إذ حظى دون غيره بكل الاهتمام سواء من جانب مادحيه أو قادحيه ، فقد كتب الكثير عن نفسه وعن نشاطه ، كما ظهرت مؤلفات عديدة عنه ارتفع في بعضها إلى مرتبة الاسطورة الخارقة .

ومع ذلك فقد حفظت لنا مجلات التاريخ أسماء شخصيات أخرى لا يقل دورها أهمية وخطورة عن دور ( لورنس ) ، ومن هذه الشخصيات ( جرتروود بل ) التي ظهرت على مسرح الأحداث أثناء العمليات الحربية والحوادث السياسية للربطة بالعراق مثلما ظهر ( لورنس ) على مسرح الأحداث أثناء العمليات الحربية والحوادث السياسية للربطة بالحجاز والشام .

ولما كان لم يصدر عنها مؤلفات كما حدث ( لورنس ) فإن مصدرنا الوحيد عن نشاطها تلك الرسائل التي كتبها لعائلتها وأصدقائها ، وقد نشرت زوجة

والدها - ليدى بل - مجموعة من هذه الرسائل في عام ١٩٢٧ ، وبعد عشر سنوات نشرت شقيقتها مجموعة أخرى، إلا أنه يؤخذ على هاتين المجموعتين أنهما حذفنا منها ما وجدت الناشران حرجا في نشره . ثم جاءت ( اليزابث بيرجوين Elizabeth Burgoyne ) وهي مدرسة إنجليزية للموسيقى فنشرت مجموعة ثالثة من الرسائل في جزئين صدر أولهما عام ١٩٥٨ ويضم الرسائل التي كتبها جرتروود بل بين عامي ١٨٨٩ و ١٩١٤ وصدر ثانيهما في عام ١٩٦١ بكل قصة حياتها لأنه يتضمن رسائلها منذ عام ١٩١٤ حتى وفاتها عام ١٩٢٦ ، وهذا الجزء الأخير هو عمدتنا في كتابة هذه الدراسة عن جرتروود بل بالإضافة إلى بعض المصادر الأصلية التي تناولت تاريخ العراق وبخاصة الوثائق البريطانية .

### حياتها الأولى :

ولن ينسح الحديث هنا عن حياة ( جرتروود ) الأولى سوى أنها ولدت عام ١٨٦٨ في عائلة أرستقراطية ، ودرست التاريخ في جامعة أكسفورد ، ولذلك كانت ( جرتروود ) - شأنها شأن ( لورنس ) - تهتم بالتاريخ والآثار ، وأين تجد كنوزها إلا في الشرق ، فولت وجهها شطره باحثة في آثاره ، فزارت طهران وجاست خلال إيران وتعلمت اللغة الفارسية حتى ترجمت ثلاثين قصيدة من ديوان حافظ الشيرازي . وفي طهران التقت بحبها الأول ( هنري كادون ) الذي كان يعمل سكرتيرا أول بالسفارة البريطانية لكنه مات بعد قليل ، أمامها الكبير فكان لضابط بريطاني ( دوتي - ويلي ) الذي فقد حياته هو الآخر في إحدى معارك شبه جزيرة غاليبولي في إبريل عام ١٩١٥ ، وهكذا قدر ( لجرتروود ) أن تقضي بقية حياتها عانسا .

وفي ديسمبر عام ١٨٩٩ - وفي أثناء رحلة لها حول العالم - استقرت بمصر الوقت في القدس وبدأت تدرس اللغة العربية . وفي مارس من العام التالي قامت برحلة عبر صحراء الأردن لتعرف على قبائلها ، وكانت تعيش مع البدو وتسميهم وتناول بيدها من إناء واحد معهم وزيت بزي عربي وعقدت صداقات مع شيوخ جبل الدروز ، ثم اتجهت إلى دمشق وعبرت بادية الشام إلى تدمر ثم إلى لبنان في طريقها إلى وطنها .

وعادت جرزود إلى الشرق عام ١٩٠٢ حيث تابعت دراسة اللغة العربية ، كما زارت الشام عام ١٩٠٥ وبمدها عودتها إلى بلادها كتبت مؤلفها : سورية - الصحراء والأرض الزراعية Syria-The Desert and the Sown الذي صدر في عام ١٩٠٨ ولم تلبث أن عادت إلى الشرق عام ١٩٠٩ فزارت حلب ودمشق وكر بلاه وآثار بابل ، وبغداد ولالوصل وقرقيش حيث التقت (بلورنس) مع المستشرق دكتور (هوجارث) .

وفي عام ١٩١٣ قامت برحلة من دمشق عبر صحراء النفوذ إلى حائل وعادت عن طريق بغداد وتدمر ، وقد رسمت للأماكن التي مرت بها خرائط تفصيلية يئلت عليها الكثير من المعلومات عن القبائل وأما كن الماء ، وقد منحها الجمعية الجغرافية الملكية ميدالية ذهبية .

من هذا تتضح لنا اللؤهلات التي رشت (جرزود) لكي تدخل في خدمة السياسة والخبرات البريطانية ، لنؤدى دوراً سياسياً هاماً على مسرح الأحداث في الشرق العربي ، حيث قامت بجولات على مدى خمسة عشر عاماً تملت فيها اللغة العربية حتى لقد سحرت العرب بملاذرتها على التحدث بها ، وتعرفت على القبائل العربية الضاربة في البادية وجالست شيوخها ووقفت صلاتها بهم وعرفت كل شيء من مضاربهم .

## جرزود والحرب العالمية الأولى :

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى في أغسطس (آب) ١٩١٤ كانت جرزود في إنجلترا ، وقد كتبت في سبتمبر (أيلول) من العام نفسه تقريراً إلى الكابتن ديدس Deedes في إدارة العمليات العسكرية الذي رفعه بدوره إلى سيرا دوارجرى Ed. Grey وكيل وزارة الخارجية البريطانية ، وقد شرحت جرزود في تقريرها الحالة السياسية في شبه الجزيرة العربية والشام مما كان له أكبر الأثر على المسؤولين الذين كانوا يخططون السياسة البريطانية ، لا بوصفه عرضاً للشخصيات والجماعات والاتجاهات السياسية في الأقاليم العربية من الامبراطورية العثمانية وحسب ولكن لأن التقرير تضمن أيضاً رد الفعل المتوقع في هذه المنطقة في حالة دخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا ، وقد أوضحت جرزود في هذا التقرير حاجة سالم بن مبارك الصباح شيخ الكويت ، وخزعل خان شيخ الحمرة وابن سعود أمير نجد إلى حماية بريطانيا ضد الترك .

وإلى جانب ذلك فقد اعربت جرزود عن اعتقادها بأن السوريين وخاصة في الجزء الجنوبي من الشام ( فلسطين ) - وأهميته لمصر معروفة - يميلون إلى بريطانيا ، وأن هذا الشعور قد تضاعف بسبب الكراهية التي يكنها السوريون للغزو الفرنسي .

أما في بغداد ، فقد كانت جرزود ترى - كما جاء في تقريرها - أن كفة المصالح البريطانية ترجح كفة المصالح الألمانية ، وذلك لأهمية المراق بالنسبة للهند . وتضيف جرزود أن السيد طالب النقيب مصدر للتأهب ، وهو لم يتلق عونا منا ، ولكن تجارنا كانوا على علاقات طيبة معه ، والكويت يعتمد في حياته علينا ، أما ابن سعود فإنه يتوق للحصول على اعتراف منا ومن الممكن كسبه كحليف

لنا ، واعتقد أنه يمكننا أن نحمل الخليج إلى منطقة ساخنة بالنسبة للترك . وليس هناك أحد من الزعماء يحب الحكم التركي ، ويتمتع كل من الزعيمين المريين عبد القادر باشا في بغداد والسيد طالب في البصرة بنفوذ كبير في إقليمه يفوق نفوذ الباشا التركي كما أن شيخ المحمرة هامل له أهميته وهو حليف لنا ، وإذا حدث أن دخلت تركيا الحرب ، فإنه من الممكن أن يتهمز الوجوديون العرب هذه الفرصة للتخلص من الحكم التركي ، وليس من المرجح أن يبدأوا هم هذه الخطوة ولكن ليس من الصعب توجيههم هذه الوجهة .

أما للمشكلة بالنسبة لسوريا فهي أن الفرنسيين قد احتجزوها لا تقسم على الرغم من أن الشعب — كما تقول جرتروود — يريد بريطانيا لفرنسا .

وقد أشار ديدس عند قدم هذه الرسالة لرؤسائه إلى أن ماورد بها « أكدته » تماما التقارير التي يبعثها للفتشون البريطانيون في الأقاليم العربية » . (١)

ولاشك أن تقرير جرتروود صادم هوى في نفس المسئولين البريطانيين وخاصة في حكومة الهند ، الذين كانوا يبدون الاهتمام بالمراق والخليج قبل نشوب الحرب العالمية بفترة غير قصيرة . ولم يكن اهتمام البريطانيين بالمراق وليد ظروف الحرب المالية الأولى وحسب وإنما كانت بريطانيا أكثر الدول الأوروبية اهتماما بهذا القطر أثناء القرن التاسع عشر خصوصا بعد أن صارت بريطانيا تواجه خطر سياسة ألمانيا في الانجاء نحو الشرق Drang Nach Osten تلك السياسة التي أثارت قلق الحكومة البريطانية وخوفها من وصول النفوذ الألماني إلى المحيط الهندي عبر العراق والخليج ، ولذلك أسرع بريطانيا بإغلاق الطريق في وجه النفوذ الألماني بإبرام اتفاقيتها المعروفة مع شيخ الكويت في عام ١٨٩٩ ، فقد كانت بريطانيا تعتبر النفوذ الألماني أشد خطرا من النفوذ الروسي ، واشتد سخط بريطانيا لأن منافسا كبيرا

يتوغل في مجال بريطانيا التجارية، ويقيم نفسه مواجهة مستمرة ويحسدنا الجميع على امتلاكها (٢).

وإذا كان للشروع الألمانى لمد خط سكة حديد بنهداد سبباً من أسباب الحرب العالمية الأولى فإن ذلك يرجع إلى أهمية السياسة أكثر مما يرجع إلى الأهمية الاقتصادية وإلى جانب ذلك فقد كان للعراق أهمية أخرى ألا وهى مجاورته لحقول النفط فى إيران وخاصة عبادان حيث كانت توجد أعظم مصافى النفط البريطانية ، حتى أنه قبل اعلان الحرب رسمياً على الدولة العثمانية تواترت الاخبار عن احتمال قيام الترك بالمهجوم على عبادان ، وكان من الممكن وصول القوات التركية إليها من البصرة

وإلى جانب ذلك فقد كان من رأى لورد كرو Crowe وزير الهند أن أهم ما كانت تستهدفه الحملة البريطانية على العراق هو التأثير المعنوى على الشيوخ العرب (٣) فقد كانت بريطانيا ترغب فى تقوية مركز الزعماء العرب الموالين لها فى منطقة الخليج مثل شيخ المحمرة وخبير الكويت وابن سعود وشهد أزرهم بتقديم دليل مادى على قوة بريطانيا يهدى من روع هؤلاء الحكام الصغار فى مواجهة الدعوة للجهاد والى كان ينتظر أن يعلنها الخليفة العثمانى ضد دول الوفاق . وقد تأكد هذا فيما جاء فى خطاب اسكويث Asquith رئيس الوزارة البريطانية وقتئذ أمام مجلس العموم البريطانى فى الثانى من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ من أن الهدف من إرسال قوة الى العراق « هو ضمان حياد العرب وحماية مصالحنا فى الخليج وحماية حقول النفط وعلى العموم المحافظة على هيبة بريطانيا فى الشرق » (٤).

وفى ١٦ أكتوبر (تشرين اول) غادرت قوة الهند بومباى بقيادة البريجادير جنرال دالماين Dalmain وكانت التعليمات المصادرة إليه تنص على حماية أنابيب

النفط الى الأهواز ومصافيه في عبادان وتأكيد معونة بريطانيا للزعماء العرب المهلين ضد الدولة العثمانية وفي ٢٣ أكتوبر تم احتلال جزيرة البحرين واتخذت قاعدة عسكرية للحملة، وفي اليوم التالي لدخول الدولة العثمانية للحرب ضد بريطانيا نزلت القوة الى البر عند الفاو حيث يصب شط العرب في الخليج (٥) .

وتولت الامدادات من الهند، وبعد سلسلة من الاختباكات مع القوات التركية استطاعت القوات البريطانية القادمة من الهند بقيادة الجنرال باريت Barrett احتلال البصرة في ٢٢/٢٣ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ حيث أذاع صير برسي كوكس Percy Cox كبير الضباط السياسيين المرافقين للحملة بياناً باللغة العربية أعلن فيه أن الحكومة البريطانية على الرغم من حالة الحرب القائمة بينها وبين الدولة العثمانية — لا تحصل ضئيلة للاهليين ، وأنهم سوف يتمتعون بالحرية والمدالة في ظل العلم البريطاني والإدارة البريطانية طالما وقفوا موقف الحياد بين القوات البريطانية والتركية وامتنعوا عن حمل السلاح ضد بريطانيا. (٦)

وقد بدأت جبرترود أعمالها في الحرب في الجهة الغربية وذلك بتسجيل الجرحى واللفقودين ، وحتى في أثناء عملها هذا لم تكف عن التفكير في الشرق العربي عامة والعراق خاصة ، ففي ديسمبر (كانون أول) ١٩١٤ كتبت تمبر عن امنيتها في أن تتواجد في العراق ، وشوقها لسماع نبأ احتلال القوات البريطانية لبغداد واخذت تكتب إلى مزارفها تطلب موافقتها باخبار حملة العراق .

ومع بداية نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٥ فتح أمام جبرترود باب الشرق ، فانه نظرا لمقرتها قبائل شمال شبه الجزيرة العربية صار من الممكن الاستفاده من جبرترود ومعلوماتها ، وتأكد دكتور دافيد هوجارث أن معلوماتها ستكون

مفيدة للغاية ، وعندما ابرقت القاهرة إلى لندن تستدعى جرتروود ، لم تضيع جرتروود وقتا بل اسرعت إلى القاهرة ، ثم كتبت إلى زوجها إليها لكي توافيها بكتبها وخرائطها التي كانت تعتقد أنها ستكون في حاجة إليها في عملها الجديد .

وفي القاهرة التقت جرتروود بكل من هوجارث ولورنس ، وكان عملها في البداية يقتصر على تزويد سجلات المخابرات البريطانية بالمعلومات عن القبائل العربية وشيوخها واعدادها ، وهو عمل كانت مؤهلة له ولا ينافسها فيه أحد .

### رأى جرتروود في أماني الشريف حسين وأطماع فرنسا :

ومنذ نشوب الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية ، صار للمثولون البريطانيون يفكرون في اسهل الوسائل لانزال الهزيمة بالدولة العثمانية ، وأدركت بريطانيا أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه عرب المشرق العربي الاسوي في الصراع الدائر ، خاصة وقد سبق أن أبدى هؤلاء بعض مظاهر السخط على الحكم التركي ، فكان من الطبيعي أن تحاول بريطانيا النيل من الامبراطورية العثمانية مستخدمة رعاياها العرب ، وقد قدر البريطانيون الاهمية العسكرية لقيام ثورة ضد الاتراك في أقطار المشرق العربي ، فأبرمت بريطانيا الاتفاق مع الادريسي في عسير في أبريل ( نيسان ) سنة ١٩١٥ ، ومع ابن سعود في نجد في ديسمبر ( كانون أول ) من العام نفسه ، إلا ان أهم اتفاقات بريطانيا مع زعماء العرب كان اتفاقها مع الشريف حسين بن علي أمير مكة الذي وقع عليه اختيارها لقيادة ثورة العرب ضد الدولة العثمانية لاسباب عسكرية وسياسية وخصوصا مواجهة الدعوة إلى الجهاد بخلق زعامة دينية تنافس الخليفة العثماني وتضعف مركزه بين المسلمين .

وعلى الرغم من أن غاية ما كان يصبو إليه الشريف حسين هو ضمان استقلاله



لثام في الحجاز فانه لم يلبث أن اتسمت آماله لتكوين دولة عربية تضم بلاد الشرق العرب (الآسيوي) (٧) خصوصا وأن القوميين العرب للمركزين في الشام في ذلك الوقت كانوا هم أيضاً يبحثون عن زعامة دينية تقود ثورتهم ضد الترك حتى لا توهم حركتهم بالمروق ، والخروج على طاعة خليفة المسلمين ، وذلك بعد أن ضجوا من عصف أحمد جمال باشا في الشام ونصب المشائق التي راح ضحيتها الرعيل الأول من الشهداء العرب القديين اعدموها في ساحة البرج ببيروت في الحادي والعشرين من أغسطس (آب) ١٩١٥ ، إلا أن الزعماء الوطنيين العرب — وقد اجتمعوا على الثورة ضد الترك بالاعتماد على مساعدة بريطانيا ووافقوا على تولي الشريف حسين زعامة هذه الثورة — قد وضعوا عطلات يتضمن المطالب التي أرادوا أن تكون أساس مفاوضات الشريف حسين مع بريطانيا ، وقد عرف هذا المخطط باسم بروتوكول دمشق ، وأهم ما جاء فيه تلك الحدود التي طالبوا بأن تعترف بريطانيا باستقلال الأقطار العربية الواقعة بداخلها والتي كانت تشمل الشام بحدودها الطبيعية والعراق بأكمل أقاليمه ، وشبه الجزيرة العربية .

وبدأت للباحثات بين الشريف حسين والمسؤولين البريطانيين في القاهرة وهي المعروفة بمراسلات الحسين مكماهون منذ الرابع عشر يوليو ( تموز ) ١٩١٥ ، إلا أن الحكومة البريطانية حاولت ألا ترتبط — في الاعتراف باستقلال العرب — بالحدود التي نص عليها بروتوكول دمشق ، وطالب بها الشريف في رسالته الأولى إلى مكماهون ولكن الشريف ألح في رسالته بتاريخ ٩ سبتمبر ( أيلول ) ١٩١٥ على ضرورة تسليم بريطانيا بالحدود التي يطالب بها العرب .

وفي مواجهة مطالب الشريف ، وادعاءات فرنسا خليفة بريطانيا أبدت جرتزود رابها في أطماع كل من الشريف وفرنسا في التقرير الذي بعث به في ٢٠ ديسمبر ( كانون أول ) ١٩١٥ إلى لورد روبرت سسل فقد ذكرت :

( أنه قد أديرت للمفاوضات مع الشريف بمهارة ، وطالما أنه في استطاعتنا اجتدابه والإبقاء على صلته بنا فملاخوف من قيام حركة دينية كبرى ، فانه هو الشخص الوحيد الذى يستطيع إثارة حرب دينية مقدسة ، أما الترك الذين يدعون إلى هذه الحرب بإيماء من الألمان فإنهم لا يقدرّون على الإقناع بها هذا العام قدرتهم عليه في العام للماضى .

والمشكلة هي هل نستطيع المحافظة على ارتباط الشريف بنا ؟ من المعلومات التى لدينا يبدو أنه قد صار يحتل مركزا مرموقا في شبه الجزيرة ، ولكن قوته روحية وإيمت عسكرية ، وإذا تقدم الترك من الشام جنوبا بقوة كبيرة فإنهم يستطيعون الضغط عليه وهو لا يقوى على مقاومة هذا الضغط ولا شك في أنه من المحتمل أن يتهاوى أمام حليفة الدولة العثمانية . وفي الوقت نفسه فإننا نلقى ضغطا وصعوبات من جانب الفرنسيين وحكومة الهند ، والشريف على حق - كما اعتقد - في رفض بحث المسألة العربية منفصلة عن بقية الاقطار ، لأن الصحراء لا تسكن نفسها ، ولذلك فإن من يسيطر على الاسواق في الاقاليم الزراعية يجب أن يسيطر على البدو وسكان الواحات ، وقد ظهر الشريف معقولا ، ومن الممكن أن نصل إلى اتفاق ، ولكن ليس على أساس التنازل عن كل سوريا ، وأن المطالب الذى قدمها سيكون مؤخرًا نجعل سوريا الفرنسية تمتد من البحر المتوسط إلى دجلة ، ومن الحكمة أن نمد للفرنسيين حبل الأمل ، وعندما نحين لهم فرصة بحث إدارة سوريا بهذا الامتداد فمن المحتمل أن يتبينوا أنها عمل اكبر من استعدادهم القيام بأعبائه ، ولما كن غزل الحبال الطويلة يحتاج إلى وقت طويل ولا يتوفر هذا الوقت حاليا .

إن حركة عربية قوية إذا أقيمت على قدميها فقد تطرد الفرنسيين من شمال

أفريقيا بمثل سهولة التي تطردنا بها من مصر . واعتقد أنه يجب على الفرنسيين أن يقنعوا بالاسكندرونه وكليكية بالإضافة إلى لبنان وبيروت .

ويتمثل ضعف هذه الفكرة في أن العرب لا يستطيعون حكم أنفسهم بأنفسهم ولا يوجد أحد مقتنع بهذا أكثر مني ، وعندما يلجأ إلينا العرب طلباً للمون - وهذا ما سيفعلونه - فإن الفرنسيين لن ينظروا إلى ذلك بارتياح (٨) .

### رحلة جرود إلى الهند :

لقد كان للمستولون البريطانيون عن الشرق العربي فريقين : فريق الساسة والمسكريين للتمركزين في القاهرة ويتمون دار اللندوب السامي البريطاني وأطلق عليهم اسم المدرسة المصرية أو مدرسة القاهرة ، وفيما بعد أطلق عليهم اسم المكتب العربي Arab Bureau وكان هذا الفريق يضم عدداً من الخبراء بالشئون العربية مثلث ١. لورنس ، رونالد ستورز Ronald Storrs وجلبرت كلايتون Gilbert Clayton وجورج هوجارث G. Hogarth وجرود بل أما الفريق الآخر فكان مركزه الهند ولذلك كان يسمى بالمدرسة الهندية ، وزعم هذا الفريق سيربرسي كوكس Percy Cox وارنولد ولنسن Arnold wilson والكابتن شيكسبير Shakespear وعلى الرغم من اتفاق المدرستين على أهمية الأقطار العربية ومواردها بالنسبة لبريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى إلا أنه كان ثمة خلاف كبير بينهما ، فبينما كانت مدرسة الهند تهتم في المقام الأول بالعراق وإيران وثروتهما النفطية وكذلك منطقة الخليج العربي ، فإن مدرسة القاهرة كانت تهتم بقناة السويس وكل ما من شأنه حمايتها ، وعلى الأخص بلاد الشام ، تنفيذاً للسياسة التي رسمها كوشنر منذ كان معتمداً بريطانياً في مصر (٩) .

وإلى جانب ذلك فقد كانت مدرسة الهند تعتقد أنه في استطاعة الحلفاء عامة

وبريطانيا خاصة إحراز النصر في الحرب العالمية دون الاستمانة بالعرب ودون الاتجاه إلى إثارتهم ضد الترك ، الأمر الذي دعت إليه مدرسة القاهرة ، فقد كانت مدرسة الهند تخشى أن يؤدي تحريض بريطانيا للعرب على الثورة ضد الخلافة الإسلامية إلى إثارة مسلمي الهند ، كما كانت تخشى أن تصبح القومية العربية مصدر تهديد لبريطانيا ذاتها فتقلب على المصالح البريطانية في البلاد العربية ، بحيث يصبح من الصعب إخضاع العرب لنفوذ بريطانيا بعد الحرب . أما مدرسة القاهرة فقد كانت تأمل أن تنجح بريطانيا ، إذا شجعت العرب على الثورة ضد الترك وساعدتهم في هذا السبيل - في الاحتفاظ بصداقة العرب بعد الحرب بحيث لا يكون ثمة مجال للخوف على مصالح بريطانيا في المنطقة . ولذلك كان من رأى أعضاء مدرسة الهند ألا تلوح بريطانيا للعرب بأية وعود استقلالية وألا تشجعهم في أمانيهم القومية كما كان من رأيها إقامة حكم بريطاني مباشر في البلاد العربية في غرب آسيا . أما مدرسة القاهرة فقد كانت نجذ إصدار الوعود للعرب وإظهار العطف على أمانيهم القومية ، وكانت ترى منح العرب استقلالاً محدوداً تحت سيطرة بريطانية مقنعة ، وأن يمهّد بتسليم مقدرات هذا الاستقلال المحدود إلى حكم من العرب الموالين لبريطانيا ضماناً لاستمرار النفوذ البريطاني ، ومن هنا كانت مدرسة الهند تمارض إشعال ثورة عربية ، تلك الثورة التي رشحت مدرسة القاهرة الشريف حسين زعامتها ، بل كانت تقاوم الاعتماد على الهاشميين وتؤيد التحالف مع ابن سعود لضعف مركزه خارج شبه الجزيرة العربية .

ولذلك كانت المفاوضات البريطانية مع ابن سعود تجري من أجل تحقيق هدف قريب وهو ضمان صداقة أمير نجد ، أو على الأقل وقوفه على الحياد أثناء العمليات الحربية في العراق ، ولم تسكن هذه المفاوضات تهدف إلى أبعد من ذلك طالما أن

مدرسة الهند — التي تولت هذه المفاوضات — لم تنهم كثيرا باقامة دولة عربية تحمل  
حمل الامبراطورية العثمانية .

وقد نفت الخلاف بين الهند ومصر حول السياسة البريطانية إزاء العرب نظرا  
جرتود وحى في القاهرة ، ولم تسكن مرتاحة لاستمرار هذا الخلاف ، لأن من شأنه  
كما قالت في رسالة إلى والدها في ٢٤ يناير ( كانون ثان ) ١٩١٦ أن يؤدي إلى  
انعدام التعاون بين إدارتي المخابرات في البلدين « وكلما استمر هذا الوضع ازدادت  
الحالة سوءا وخطرا ، وم ( في الهند ) لا يعلمون بأحوال المناطق الغربية من شبه  
الجزيرة ونحن ( في مصر ) لانعلم عن المناطق الشرقية منها ، ولذلك فأننى سأذهب  
إلى الهند ، ولا أدري إذا كانت هذه الرحلة سوف تأتى فائدة ولكنها حديرة  
بالمحاولة على كل حاله ، ولسوف أتعلم الكثير لأنهم ( في الهند ) سوف يسمحون لى  
بالبحث والتنقيب في سجلاتهم عن العرب حتى أرى ما يمكن إضافته منها إلى معلوماتنا  
ونحن في حاجة إلى أن ننشئ للشرق الأدنى مكتبا دائما للمخابرات هنا ( في القاهرة )  
على أن يستمر في العمل بعد انتهاء الحرب ، وهذا المكتب لا يستطيع العمل بدون  
معرفة السلطات البريطانية في الهند ، وهذا هو الموضوع الرئيسى الذى سأتناوله بالبحث  
مع نائب الملك في الهند ( ١٠ ) وفي الثامن والعشرين من يناير ( كانون ثان ) ١٩١٦  
أبحرت جرتود على ناقلة الجنود بوربيديز Euripides فوصلت كراتشى في السابع  
من فبراير ( شباط ) ومنها إلى دلهى حيث التقت بلورد هاردنج Hardinge نائب  
الملك في الهند وبعد انتهاء مباحثاتها معه غادرت الهند في السابع والعشرين من الشهر  
نفسه .

### جرتود في العراق :

وفي طريق عودتها من الهند زارت جرتود العراق ، فزالت في البصرة ضيفة

على آل كوكس ، وكان سير برسي كوكس كبير لضباط السياسيين في الخليج ، وعلى الرغم من أنه سبق لجرترود مقابله إلا أن هذه الزيارة كانت فاتحة أقوى وأمن صداقاتها في الفترة الأخيرة من حياتها . وفي البصرة عهد إليها بالاشتراك في تحرير فهرس عن أما كن شبه الجزيرة العربية ، كان يجري إعداده لحكومة الهند وقد التقت في هذه الأثناء بمستردوبز Dobbs الذي كان وقتئذ ضابطا سياسيا بالعراق وبذلك التقت جرترود بثاني اللندوين الساميين الذين عملت معهم في العراق .

وفي أثناء وجودها بالعراق أوفد لورنس من القاهرة إلى العراق في إبريل ( نيسان ) ١٩١٦ ، وكانت المهمة التي عهد بها إليه هي السعي لفك الحصار التركي للقوات البريطانية في الكوت ولو برعوة القائد التركي خليل باشا (١١) .

وفي أثناء وجودها بالعراق أيضا بذلت جرترود بعض الجهود لاستئصال ابن الرشيد وكان لا يزال يؤيد الترك ، ولذلك التقت في أوائل مايو ( أيار ) ببعض رجال ابن الرشيد الذي كانوا يرفعونها منذ رحلتها في حائل قبل الحرب واستقت منهم بعض الأخبار ثم بثت منهم بعض الرسائل إلى أمير حائل وإلى بعض الشخصيات الأخرى التي تعرفها ، وكانت جرترود تعلق الآمال على كسب أمير حائل إلى جانب بريطانيا أو على الأقل الوقوف على الحياد ، وكان سير برسي كوكس يؤيد مساعي جرترود ولقد فشلت محاولة جرترود ولم ينزحزح ابن الرشيد عن موقفه ، ولذلك فقد انتهت في رسالتها إلى ذويها في ١٥ يوليو ( تموز ) بالحق الذي لا يتصوره عقل ، وعبرت عن أملها في أن يثور عليه أهل شمر ويقيموا أميرا آخر مكانه (١٢) .

ولقد صارت مهمة جرترود في العراق هي العمل كحلقة اتصال بين القاهرة والبصرة ، وانتهزت هذه الفرصة لجمع مزيد من المعلومات عن العراق وقبلالة مستعينة بكثير من الشخصيات البريطانية من العاملين في العراق مثل الكاتبة ايدى Eadie

الذى كانت يعرف عن القبائل في العراق أكثر من أى شخص آخر في العراق .  
و مستر ادموندز Edmonds (١٣) الذى كانت وقتئذ ضابطاً سياسياً  
في سوق الشيوخ ومنه استقت كثيراً من المعلومات عن البادية والحضر في العراق .  
فكانت تتركب للخييل مع مرافقيها من الضباط البريطانيين تجوب القرى وتذهب  
لزياره أعيانها وتتناول معهم الطعام ، وفي المساء تستدعى اليها الأهالي للحصول  
منهم على المعلومات التي كانت تجرى وراءها ، وتحاول للتقرب منهم بشق الوسائل  
بأداء بعض الخدمات لهم ، وفي هذه الاجتماعات تدار القهوة والسجائر على الحاضرين  
كل هذا دون أن يتطرق اليها التنب وهي تعمل في الجو القاطئ ، فقد عبرت - في  
خطابها في ١٦ يونيو عن سماتها في العراق ، وقد صورت في هذا الخطاب سوء  
حالة الحملة البريطانية على العراق ، تلك الحملة التي أعادت إلى ذاكرتها الحملة على  
القرم في منتصف القرن التاسع عشر (١٣).

وفي هذه الجولات زار جرتروود الكثير من الجهات مثل النصيرية وسوق  
الشيوخ والقرنه ، وعلى أثر عودتها من هذه الجولات إلى البصرة عينت جرتروود  
مندوبة رسمية للقاهرة ، وبذلك صارت جزء من الحملة الهندية على العراق .

ولم تهدأ جرتروود بل تابعت دراساتها للقباني ، فامضت عيد رأس السنة (ديسمبر  
سنة ١٩١٦) في قلعة صالح مع مسترسان جون فيلي ، واستمرت خلال الشهر  
الأولى من العام الجديد (١٩١٧) تستقبل الزعماء العرب .

وقد تمكن البريطانيون من استعادة الكويت في ٢٤ فبراير (شباط) ١٩١٧  
وطى أثر ذلك عهدت الحكومة البريطانية إلى الجنرال مود Maude قائد الحملة  
على العراق بالتقدم إلى بغداد التي سقطت في يده في الحادى عشر من مارس (آذار) ،  
وذاع الجنرال مود في التاسع عشر من الشهر نفسه بيانا باللغتين العربية والانجليزية

أعلن فيه أن القوات البريطانية لم تأت إلى العراق غازية بل محررة ، وإن بريطانيا والدول المتحالفة معها ترغب وتأمل في أن ينهض الجنس العربي ليحتل مكانه بين شعوب الأرض . ودعا العراقيين إلى المساهمة في إدارة شؤونهم المدنية بالتعاون مع ممثلي بريطانيا السياسيين الذين يرافقون القوات البريطانية (١٤).

وبعد أن سقطت بغداد في أيدي القوات البريطانية انتقلت إليها جرترود — فوصلتها في ١٥ أبريل ( نيسان ) ١٩١٧ ، حيث بدأت في تكوين صداقات جديدة مع كثير من الشخصيات العربية الجديدة إلى جانب أصدقائها القدامى ، وظل للكتب العربي بالقاهرة يرسل جرترود ويزودها بالمعلومات عن أحوال الحجاز والشام التي تهم للصالح البريطانية عن قرب ، وكانت هي الأخرى تكتب إليهم عن أحوال العراق ، فقد كانت جرترود تعتبر أنها جميعا فصول في رواية واحدة .

وأضيف إلى جرترود عمل آخر هو تحرير صحيفة محلية اسمها ( العرب ) كان يساعدها في إصدارها كاتب لبناني هو سليم البستاني ، كما قامت بجولات في كثير من مدن العراق وبخاصة في مراكز الشيعة في كربلاء والنجف والحلة والكوفة حيث التقت بمجتهدي الشيعة في أواخر عام ١٩١٧ وأوائل عام ١٩١٨ ، حتى لقد أصبح الناس يحبون لهذا الحدث الذي لم يسبق له مثيل : امرأة أجنبية تجالس إلى مجتهدي الشيعة تحمى معهم القهوة وتنصت إلى أحاديثهم في اهتمام بالغ ، ولقد أطلق عليها الناس لقب الخاتون أي السيدة الشريفة .

ولقد اهتمت جرترود على وجه الخصوص بتوثيق صلاتها ب كبار ملاك الأراضي وزعماء العشائر الذين كانوا الفئة الوحيدة التي لا تعاني من قسوة ظروف الحرب ، وكان لكل منهم نفوذ وسلطة في منطقته ، وقد اهتمت السلطات البريطانية بسكسب تأييدهم باعتبارهم قوة لها أهميتها في تحقيق الأمن وخدمة الصالح البريطانية والحيلولة



دوت تقديم المساعدات لترك ، فسمدت السلطات البريطانية إلى الاتفاق مع هؤلاء الشيوخ والزعماء وجعلهم مسئولين أمامها عن شئون عشارهم ومناطقهم فيما يختص بالأمن وحماية المواصلات والأموال البريطانية وجمع الضرائب ، فأعادت عليهم الأموال وأعفتهم من الضرائب ، ومكنتهم من الانتفاع بالأراضي الأميرية ومنحتهم الأقطاعات الكبيرة مما كان له أثره في تكوين النظام الاقطاعي في العراق .

### جرتوده والتصريح الإنجليزي الفرنسي المشترك :

وعندما أحست بريطانيا وفرنسا بالضغط المحتاج للشرق العربي بعد تحريره من الترك لم يدم وفاء الدولتين للعرب بالوعود التي بذلت لهم أثناء الحرب ، أسرعت الدولتان بإصدار التصريح الإنجليزي الفرنسي ( ٧ نوفمبر ١٩١٨ ) الذي وعده بتجميع إقامة حكومات وإدارات وطنية في كل من الشام والعراق ، ولقد أعلن ارنولد ولسن كبير الحكام السياسيين بالنيابة معارضته للتصريح والسياسة التي أملتته التصريح ، ففي ١٦ نوفمبر ( تشرين ثان ١٩١٨ ) بحث إلى وزير الهند معلنا أن التصريح « سوف يورطنا في مشاكل جسيمة كذلك التي أثارها وعود مكماهون كشراف مسكه » مؤكدا اتصال العراق عن بقية الأقطار العربية ، مطالبا بمعاملة معاملة مختلفة وفصل قضيته عن القضايا العربية في البلاد الأخرى (١٥) . إلا أن المسئولين البريطانيين في لندن أبلغوا ولسن أن الهدف من التصريح كان توضيح الموقف في سوريا على الرغم من إشارة التصريح إلى العراق .

ولقد كان ولسن وغيره من الاستعماريين البريطانيين يعتبرون احتلال العراق أوج النشاط البريطاني لأنه يؤمن الطريق إلى الهند ، كما يضمن حماية الهند من روسيا البلشفية التي تماظم خطرها عن ذي قبل بعد أن باتت اطماعها تنفيذها مبادئ

اجتماعية. ولذلك عارض ولسن الاقتراح الذى قدمه لورنس إلى حكومته بأن يوضع العراق الأدنى تحت حكم الأمير عبد الله والأعلى تحت حكم الأمير زيد وسورية تحت حكم الأمير فيصل على أن يظل الحسين ملكا على الحجاز ولا تكون له أية سلطة زمنية على الأقاليم الثلاثة خارج الحجاز . وعندما أبلت الحكومة البريطانية ولسن باقتراح لورنس اعتبرها — فى ٢٠ نوفمبر ( تشرين ثان ) ١٩١٨ — غير عملية وأن وضع أبناء الشريف فى هذه المراكز ليس فى مصلحة بريطانيا أو سكان البلاد، وأن تقسيم العراق لا تبرره الأحوال السياسية والاقتصادية لأن الولايات العراقية الثلاث يجب أن تكون وحدة واحدة تحت السيطرة البريطانية الفعالة ، « ولذلك فإننى استنحت حكومة صاحب الجلالة من أجل استثناء هذه البلاد ( العراق ) تماما وإلى الابد من أى تسوية مع الأشراف » .

إلا أن مس بل كانت تمتد أن ارتوله ولسن قد جانبه الصواب فى اعتقاده بأن أهل البلاد لن يقبلوا أن يتولى عليهم حاكم عربى من الأشراف أو من خارج العراق عموما ، وكانت ترى أن أهل العراق لن يقبلوا أميرا محليا لأنهم لا يتقون فى أحد منهم ، ولكنهم سوف يؤيدون أى رئيس عربى خصوصا إذا كان يستند إلى تأييد مندوب سام بريطانى قسوى (١٦) .

ورغم غموض التصريح وبمده عن تحقيق أمان العرب إلا أن جرزود لم تكن راضية عنه من حيث أثره على الأهالى فى العراق وقد بعثت برأيها إلى المسئولين البريطانيين فى مذكرة بتاريخ فبراير ١٩١٩ تحت عنوان « تقرير للصير فى العراق » وقد ذكرت ( جرزود ) أن نشر التصريح الإنجليزى الفرنسى — مهما كان منزاه السياسى فى أى مكان آخر — فإنه كان ضرورة يؤسف لها فى العراق ، « فإنه على

الرغم من أنه لم يفعل أكثر من تأكيد النوايا التي سبق إعلانها عند احتلال بغداد (النصرية مود) إلا أنه كان يختلف عنها في ناحية هامة ، إذ أنه بينما صدر تصريح الجزال (مود) ونتيجة الحرب لا تزال موضع شك بما جملة ضرورة عسكرية ، فإن التصريح الإنجليزي الفرنسي صدر بعد انتصار الحلفاء ، وقبل إصداره كان أهل العراق قد شهدوا النهاية الناجحة للحرب وسلموا بأن بلادهم ستبقى تحت السيطرة البريطانية للبشارة وكانوا سيرضون بالخضوع لحكم القوة ، إلا أن التصريح فتح الباب أمام احتمالات أخرى وأتاح الفرصة للدسائس السياسية من جانب العناصر المنعصبة خصوصا وأن التصريح صدر بعد أن عاد إلى بغداد عدد من الأشخاص الخطرين على الحدود في العراق حيث أخذوا في بث الدعاية ضد البريطانيين ، وبما زاد من تأثير التصريح تلك الأنباء التي أذاعتها (روبرت) عن ذهاب الشريف فيصل إلى مؤتمر الصلح كمدوب عن الدولة العربية للمستقلة (١٧) .

وإلى جانب ذلك فقد كانت جرتروود تعتقد أن تصريح ٧ نوفمبر لا يتعارض مع وضع العراق تحت الحماية البريطانية ، كما لا يتعارض مع الحماية وضع زعيم عربي على رأس الدولة في العراق — متخذة من قبل الحرب مثالا لذلك ، وأشارت إلى أن الرأي العام في العراق لا يمتزج على تعيين عربي على رأس الدولة ، وأنه يوافق على وضع أحد أبناء شريف مكة في هذا المركز إلا في حالة وجود مرشح مصري أكفأ (١٨) .

وفي السابع من مارس ١٩١٩ وصلت جرتروود إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح وقد انضم إليها — بناء على استدعاء الحكومة البريطانية — كل من (ارنولد ولسن) نائب كبير المحاكم السياسيين في العراق ، (هو جارث) من للكذب العربي بالقاهرة علاوة على (لورنس) فكونوا جبهة من اللشنتلين بمسائل الشرق العربي ، للاتفاق

على رأى موحد تسترشد به الحكومة البريطانية . ثم عادت ( جرتروود ) إلى بغداد في ٢٤ أكتوبر ١٩١٩ ، وتوافد الزوار على بيتها بالمشراة فكانت تقعد معهم جلسات يحضرها بعض رجال الإدارة بالعراق .

ولم تلبث ( جرتروود ) أن صارت تقدر ارتباط الصالح البريطانية في العراق بالصالح الفرنسية في الشام وأنه لا يمكن بحث التنمية العراقية منفصلة عن التنمية السورية ، ولذلك فإنها — في ٢٠ ديسمبر ١٩١٩ — طالبت بأنه على الحكومة البريطانية أن تصل إلى اتفاق مع الحكومة الفرنسية على أسس الصالح مع تركيا وذلك بعد أن انسحبت الولايات المتحدة — عليها لعنة الله ( كما تقول جرتروود ) ونقضت يدها من مشاكل العالم القديم .

### جرتروود والثورة في العراق :

ولم تلبث الثورة أن نشبت في العراق منذ أواخر عام ١٩١٩ ، وتجمعت عدة أسباب أدت إلى انتعجار رجل النضب في كافة أنحاء البلاد ، وبخاصة سياسة ( ارتواء ولسن ) التي أسست بالقمع والشددة لمواجهة بلاد تطالب بالحرية ، وقد عمّت الثورة أنحاء العراق ، احدى شهد وحدة بين طوائفه المختلفة ، وحدة بين السنيين والشيعة ، وعقدت الاجتماعات السياسية في الساجد حيث قرئت الأشتار الوطنية تطالب المحتلين بالخروج من البلاد .

وإزاء هذه الثورة المارمة التي اجتاحت العراق ضد الاستعمار البريطاني وكلفت الحكومة البريطانية الكثير من الأموال والأرواح ، علاوة على ضياغ هية بريطانية في المنطقة وتزعزع مركزها ، ظهرت عدة آراء تقترح حل مشكلة العراق ، فهذا ( لورنس ) يقترح إقامة إدارة عربية تحت رئاسة أمير من الأسرة الهاشمية في الحجاز ، على أن يقوم إلى جانبه ( سير برسي كوكس ) كمتعمد بريطاني يحيط به عدد من

السناريين لإبداء النصيح وتقديم العون إلى هذه الإدارة فقد صار (لورنس) يعتقد أنه من الممكن السيطرة على العراق بواسطة الضباط العراقيين الساخطين على الحكم التركي، وبذلك يمكن خيعة لصالح البريطانية بأقل التكاليف عن طريق (العرب الأصدقاء) الذين تساندتم بريطانيا عندما يتولون حكم البلاد المباشر بأنفسهم.

وقد كانت (جرتروود) تؤيد رأى (لورنس) حتى لقد اقترحت - أثناء وجود فيصل في بريطانيا بعد أن طرده الفرنسيون من سورية - أن أفضل اقتراح يمكن أن تقدم به لحكومتها هو أن يقوم (سير برسي كوكس) بتتويج فيصل ملكاً على العراق في كنيسة (وستمنستر Westminister Abbey) ثم يعمران معاً إلى العراق (خطاب جرتروود في ١٦ أغسطس ١٩٢٠).

ولا شك أن هذا الرأى انتهى بهامات ختنته (جرتروود) هو أساس الخلاف بينها وبين (أرنولد ولسن) والذي كان يتبع الشدة في دفع الحركة الوطنية في العراق ويطالب بإقامة حكم بريطاني مباشر صريح لا حكماً غير مباشر يخفى وراء واجهة عربية كما كان ينادى (لورنس) و (جرتروود) وقد كان (ولسن) يقدم أهمية العراق الاستراتيجية ويرى أن البريطانيين - باحتلال العراق - قد تمكنوا من «دق أسفين في العلم الإسلامي» وبذلك منعاً تجمع المسلمين ضدها في الشرق الأوسط، ويجب أن تكون سياستنا الاحتفاظ ببلاد العراق وعدم إدماجها سياسياً في بقية أجزاء العلم العربي أو العلم الإسلامي.

إلا أن الحكومة البريطانية - إن شاء ما تحمته من خسائر من جراء الثورة - أخذت بوجهة نظر (لورنس) و (جرتروود) ولذا قرر (ولسن) ترك العراق،

ولو أنه لم ينفذه إلا في أكتوبر ١٩٢٠ عندما وصل (سير برسي كوكس) الذي أعني من مهام منصبه في طهران .

وإذا انتصرت وجهة نظر (جرترود) فقد ثمرت عن ساعد الجدد من أجل تيسير سبيل تحقيقها ، ولذلك قامت - يماونها (سان جون فيلي) الذي حضر إلى بغداد مع (سير برسي كوكس) - بمثل قائمة بأسماء أعيان البلاد الذين كانت (جرترود) ضرورة النقاء (كوكس) بهم ، وقائمة أخرى بمن يتعين عليه أن يقيم معهم صداقات شخصية وأخذت على عاتقها توجيه الدعوات لهؤلاء ، وكانت النتائج - كما نقول (جرترود) - مرضية .

وفي كل خطوة بخطوها (كوكس) في تنفيذ المخطط الجديد للحكومة البريطانية من أجل السيطرة على العراق كان يسترشد بأراء (جرترود) فقد صارت سكرتيرة الشرقية منذ ١٨ أكتوبر ١٩٢٠ ، ويتضح ذلك عندما واجهته مشكلة من يتولى رئاسة الحكومة الانتقالية التي كانت ستدير البلاد في فترة الانتقال ، ورغم أن (طالب باشا النقيب) زعيم البصرة كان أبرز شخصية في العراق في ذلك الوقت ، كما كانت (جرترود) معجبة به لعدم اشتراكه في الاضطرابات ، إلا أنه كان معروفا بقوة الشكيمة ، ولم يكن من السهل إخضاعه لإرادة البريطانيين ، ولذلك اقترحت (جرترود) على (سير برسي كوكس) عرض منصب رئيس الحكومة المراقبة للوقت على السيد عبد الرحمن السكيلائي نقيب بغداد ، رغم أنه كان معروفاً بعزوفه عن التورط في الشئون العامة حفاظاً على سمعته الدينية (١٩) ، هذا إلى جانب شيخوخته واعتلال صحته ، وقد وافق نقيب بغداد على تولي المنصب ، ولما لم يكن من السهل تخطي (طالب النقيب) وإغفاله تماماً فقد استطاعت (جرترود) و (فيلي) إقناعه بتولي منصب وزير الداخلية في هذه الحكومة على أساس أنه سيكون الرجل الثاني ، وأنه إذا مرض الرئيس أو توفي فإن (طالب باشا) هو الذي سيحل محله (٢٠).

ومما تجدر ملاحظته أنه عندما عرض منصب وزير الدفاع في هذه الحكومة للوقت على جعفر العسكري ، أسرع إلى ( جرتروود ) يسألها النصح فيما إذا كان اشتراكه في الحكومة للوقت التي تعتبر « خدعة بريطانية » سوف يقضى على سمعته الوطنية ، فأبلغته ( جرتروود ) أن ثقة أولئك الذين حاربوا في سورية قد تزعمت بما اعتبروه تخلي بريطانيا عن ( فيصل ) (٢١) ولذلك فهي تعتقد أن العراق يجب أن يختار أميراً من الأسرة الهاشمية وأن الحكومة البريطانية لن تقف في وجه هذا الاختيار ، وظلت ( جرتروود ) تلح من أجل اختيار أحد أبناء الشريف حسين أميراً دائماً على العراق خلفاً للحكومة الانتقالية ، وقد اقتضت الحكومة البريطانية بأن أفضل من يتولى عرش العراق في ظل السيطرة البريطانية هو ( الأمير فيصل ) لمقامه الديني ودوره ودور والده في الثورة على الترك ومعاونة بريطانيا ، وصلته بكثير من العراقيين ممن عملوا معه في سورية ، ورغبة بريطانيا في إزالة ما علق بمشاعره من أسياء ومرارة لتخليها عنه لفرنسا ، واعتبر المسئولون البريطانيون أن فشله في الاحتفاظ بالمرش السوري سيجمعه أكثر إدراكاً لواقع الحال وأكثر روية في معالجة الأمور .

ومن ناحية أخرى أخذت ( جرتروود ) توجه بعض الصحف المحلية لتحقيق الأهداف التي كانت تسمى إليها ، فقد نظمت مثلاً بعض الاجتماعات مع محرر صحيفة ( العراق ) - التي كانت في نظرها معتدلة - بحيث كان يلتقي بها مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً يستقى منها الأخبار ويتزود بالانكار .

وأخيراً قرر ( ونستون تشرشل ) وزير للمستعمرات البريطاني عقد مؤتمر في القاهرة ، يحضره السياسيون المشتغلون بشئون الشرق العربي مثل ( هربرت صمويل ) للندوب السامي في فلسطين و ( سير برسي كوكس ) للندوب السامي في العراق علاوة

على لورنس وغيره من المستشارين ، وكانت ( جرترود ) تنسوي أن تشغل نفسها - أثناء غياب ( كوكس ) في القاهرة - بالعمل على تشكيل الرأي العام في العراق وتوجيه الوجهة التي تريدها ، ومن ذلك اجتماعها ( بمجمر السكري ) وطلبت منه إعداد الرأي العام لاحتمال تولية أحمد ابنه ملك الحجاز على عرش العراق ، وفي حديث مع ( نوري السعيد ) أشارت ( جرترود ) إلى أهمية تولي حاكم عربي على العراق ، وعندما تسأل عن كيفية التغلب على الصعوبات التي قد تصادف ( الأمير فيصل ) أجابت بأن الوسيلة الوحيدة هي عدم التردد بل السير قدماً في هذا السبيل . إلا أن ( جرترود ) أعلنت أنه ليس من الممكن تقرير شيء قبل اجتماع القاهرة المرتقب ، ولكنها أوصت ( نوري السعيد ) بأن يبذل غاية جهده من أجل وقف أي نشاط سياسي يقوم به حزب ( العربية الفتاة ) ، وتهدئة العناصر الوافدة إلى العراق من سورية ، أثناء غيابها مع ( سير رسي كوكس ) في القاهرة ، بعد أن صم ( كوكس ) على اصطحابها معه إلى القاهرة .

وقد كانت وجهة نظر كل من ( كوكس ) و ( جرترود ) تتفق مع وجهة نظر ( لشرشل ) ، إذ طالب ( كوكس ) بإسقاط الانتداب على العراق الذي كان قد تقرر في مؤتمر ( سان ريمو ) والعمل على إبرام معاهدة مع الدولة العربية بعد إقامتها واعتبرت ( جرترود ) أنها ستكون خطوة رائدة « إذا جاءتنا الشجاعة الكافية لاتخاذها » ، واعتبرت فكرة إحلال معاهدة محل الانتداب - أي مزاولة سلطات ومهام الانتداب من خلال معاهدة - ضربة عبقرية Stroke of Genius لأنها توفق بين أماني الوطنيين في الاستقلال وبين مصالح بريطانيا لأن كلمة انتداب تعني الخضوع وهو أمر لم يمد بحته العراقيون ، أما معاهدة ( بين الطرفين الساميين المتعاقدين ) فيبدو فيها كأن طرفاً قد وافق بحرية على بعض القيود على سيادته ، وبذلك يمكن أن نجد القبول دون أن توصم بالاستعمار .



وفي مذكرة ( سرية للغاية ) بعث بها جرود إلى حكومتها بتاريخ ٧ فبراير ( شباط ) ١٩٢١ ، أشارت إلى أن مؤتمراً على وشك الإعتقاد في لندن وباريس لإعادة النظر في معاهدة سيفر وأن نية اتجاهات في الحكومة البريطانية لتقديم عرض للملك على أمير تركي ، من أجل تهدئة الوطنيين للترك ، وقد اعترضت جرود على هذا الاتجاه ، على أساس أنه سيكون من الصعب إقامة انتداب بريطاني على العراق تحت حكم أمير تركي ، وفي الوقت نفسه سيكون من الصعب على تركيا للرجعة لتولي الانتداب على العراق ، وأضافت جرود أن الوطنيين في العراق لا يريدون الترك ولكن نظراً لخطهم على الوضع القائم في العراق ، فإنهم يستخدمون شبح الترك لإخراج الإنجليز ثم يقومون بإخراج الترك ، وأشارت جرود إلى أن المجموعة التي تفكر هذا التفكير ولو أنها صغيرة العدد إلا أنها قوية الصوت ولسان حالها صحيفة الاستقلال ( ٢٢ ) .

ولذلك فقد كان من بين القرارات التي اتخذها مؤتمر القاهرة في مارس ١٩٢١ ترشيح الأمير فيصل لعرش العراق للمستقل الذي يرتبط بريطانيا بمعاهدة ، ولو أن الحكومة البريطانية أرادت أن تكسب تولية فيصل صفة شرعية بتقرير إجراء استفتاء حتى تبدو توليته وقد نالت موافقة أغلبية الشعب العراقي .



إلا أن الطريق أمام ( فيصل ) لم يكن سهلاً مهدداً . فقد كان غريباً عن البلاد لا يثق فيه الشيعة لسببته ، بل أن عدداً كبيراً من السليين لم يكونوا راضين عن علاقة أبيه بالإنجليز وثورته على خليفة المسلمين ، هذا إلى جانب منافسة عدد غير قليل من المرشحين ، كان أخطرهم (طالب باشا النقيب) الذي كان يعتبر نفسه أحق من (فيصل) بعرش العراق « من ذا أحق من بيلاي ؟ ألا يجوز أن يحكم العراق مراني ؟ » وقد أحس (طالب) بأن بريطانيا — رغم تذرعها بأنها لن تولى فيصلاً على العرش إلا

استناداً إلى موافقة الشعب - تتخذ كل الوسائل من أجل فرض فيصل ولقد لك أخذ (طالب) يتصدى لهذه المحاولة ، فمارض - بصفته وزيراً للداخلية في الحكومة المؤقتة - في إصدار صحيفة تتولى العناية لفيصل مما حدا (بالسيريسى كوكس) إلى أن يطلب من (جرتروود) بدء العمل في هذه الصحيفة دون موافقة (طالب باشا) كما تولى (سيريسى كوكس) إرسال البرقيات يدعو فيها (للك حسين) لإرسال ابنه ولم ترسل الدعوة بالوسائل العادية حتى لا يوقفها (طالب باشا) .

وقد غضب (طالب باشا) وهو يرى هذا التدخل السافر لفرض (فيصل) وأظهر صغته في مأذبة كان قد أقامها لمستر (لاندون) Percival Landon مراسل (الدبلي تلتراف) وألقى (طالب) في المأذبة خطاباً أعلن فيه أن هناك بعض الموظفين المحيطين بالندوب السامى متحيزون وبمارسون ضغظاً وتدخل في الانتخابات (وكانت جرتروود على رأس من يقصدم (طالب باشا) وهدد (طالب) بإثارة الأهليين والشيوخ وأنه سيلجأ إلى الإسلام وإلى الهند ومصر والاسانة وباريس ، وصارت (جرتروود) ترى في حديث (طالب) دعوة إلى الثورة لا تختلف كثيراً عن الدعوة إلى الجهاد (١٣) .

وقد ترتب على ذلك أن دبر أمر اعتقاله ونقل إلى فاو ومنها إلى سيلان ، ثم رحل إلى أوروبا ولم يمد إلى العراق إلا عام ١٩٢٥ . وقد اغتبطت (جوتروود) لهذا الإجراء وأحست بأن عبثاً ثقيل قد انزاح وأن العقبة الكبرى قد زالت من طريق فيصل ، خصوصاً وقد أعفى (سان جون فيلي) مستشار الداخلية ونصير (طالب باشا) من منصبه ، كما استطاعت الحكومة البريطانية أن تثني بقية المرشحين - وعلى رأسهم نقيب بغداد - عن منافسة (فيصل) .

وعند ما وصل (فيصل) إلى العراق ، وعلى الرغم من تأييد الحكومة المؤقتة

ومساندة البريطانيين ، فقد كان استقباله قاتراً ، وكان معظم الناس منصرفين عنه حتى أنه في اليوم التالي لوصوله إلى بغداد مرت ( جرتروود ) بالسراى التى كان ينزل بها وترك له بطاقتها لكنه استدعاها وجلس إليها بينما غاونه ، فطمأنته وأكدت له أن ( سيربرى كوكس ) معه قلباً وقالاً .

وبما تجدد ملاحظته أن الكاليين في تركيا مجرد أن صمموا بأن في نية بريطانيا تنصيب ( فيصل ) على عرش العراق بدعوا في بث دعاية قوية تأييداً للشيخ أحمد الإدريسى السنوسى كنافس لفصل على عرش العراق ، كما أن الحكومة الفرنسية — إلى جانب تطلعاتها إلى فصلها في بغداد بالألا يقيم اعتباراً لفصل — رصدت مبلغاً من المال لمساعدة السنوسى في الدعاية ضد فصل وبريطانيا على السواء . وأخذ السيد أحمد السنوسى يرسل العديد من الخطابات يحض القبايل والأفراد على الثورة ضد الإنجليز وفصل باسم الإسلام ، حتى لقد شعر فيصل بالياس وصار يفكر في مفادرة البلاد إلى إنجلترا لولا أن ( جرتروود ) ومعه ( جعفر المصكرى ) و ( كورنواليس ) مستشار فيصل أقنعوه بالثبات وعدم ترك البلاد حتى لا يقال إنه اختلف مع ( سيربرى كوكس ) ( ٢٤ ) .

وأخيراً نجح ( فيصل ) في الاستفتاء بفضل موازنة السلطات البريطانية التى لجأت إلى كثير من الوسائل للتعايل من أجل توليته وتم تنويجه ملكاً على العراق في الثالث والعشرين من أغسطس ١٩٢١

وحق بمد أن توج فيصل ظل القلق يراوده عن مستقبله ، حتى لقد كتبت ( جرتروود ) في ٢٥ سبتمبر ١٩٢١ أنها عند ما طلبت من ( فيصل ) إحضار زوجته وأولاده إلى العراق عبر لها عن عدم اطمئنائه ، مما دعا ( جرتروود ) إلى أن توحى إليه بعقد اجتماعات مع شخصيات معينة لتدعيم مركزه وتمهدت هي بأن تقدم له قائمة بأسماء الشخصيات التى يتعين عليه توثيق صلاته بهم .

وهكذا كان فيصل مدينا بالفضل ( جرتود ) حتى أنها عندما اطمانت إلى  
توليته وزوال العقبات التي كانت في طريقه فكرت في السفر إلى ( وطنها ) بريطانيا  
لقضاء الصيف ، وعندما أبلغت فيصلا بذلك طلب منها ألا تسكن عن ( وطنها )  
« فوطنك هنا ، ولكن يمكنك أن تقول أنك ذاهبة لرؤية والدك » .

### رأي جرتود في سياسة بلادها إزاء الصهيونية :

وإنصافاً لهذه المرأة لاستطيع أن نختتم هذه الدراسة دون أن نشير إلى موقف  
جرتود من السياسة التي اتبعتها بعض ساسة بريطانيا إزاء الصهيونية ، تلك السياسة التي  
تظهر بوضوح في إصدار تصريح بلفور في الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ . ويكفي في  
هذا المقام أن نستشهد برسالة جرتود إلى زوجة أبيها في ٢٥ يناير ( كانون ثان )  
١٩١٨ والتي ذكرت أنها « تكره تصريح بلفور الصهيوني بخصوص سوريا ، وفي  
اعتقادي أنه لا يمكن تنفيذه ، فإن البلاد ( فلسطين ) غير ملائمة للمرة للأهداف التي  
يتطلع اليها إلى تحقيقها ، فهي بلاد فقيرة لا تصاح لتطور كبير ، وثلاثا سبكانها من  
العرب المسلمين الذين ينظرون إلى اليهود نظرة ملؤها الكراهية والحقد ، وفي اعتقادي  
أنه مشروع ( الوطن القومي اليهودي ) مصطنع ( غير طبيعي ) لا صلة له بالحقائق ، وأتخى  
له العمل الذي يستحقه والذي سوف يتحقق » ( ٢٥ ) .

### خاتمة اللطاف :

وبعد أن أدت ( جرتود ) دورها بنجاح وانتهت مهمتها بدأ نجمها في الإنزول  
وخاصة بعد أن تولى ( سير هنري دوبر ( Dobbs ) منصب البندوب السامي في  
العراق ، ولم تسكن ( جرتود ) على وفاق معه ، فعينت بأمر الملك فيصل مديراً لتحتجب

الآثار إلى أن مات عام ١٩٢٦ ، وقد كتب لورنس إلى والدها عام ١٩٢٧ بأنه :  
« على يقين من أنها ماتت سعيدة راضية ، لأنها أنجزت المهمة السياسية التي أنيطت  
بها على أحسن وجه وهي مهمة من أخطر المهام التي وكلت إلى امرأة ، لقد انتهى  
دورها التاريخي ، كما انتهى دوري من قبل . »

وليس أول على تقديره واطنيها لها وللخدمات التي أدتها لبلادها من تلك العبارة  
التي اختتم بها شين ليزلي Shane Leslie مقدمته للجزء الثاني من كتاب  
اليزابث بيرجوين والتي قال فيها أنه لو أرادت بريطانيا أن تخلد النساء للآلئ عشن  
ومتن في سبيل الإمبراطورية أثناء الحرب العالمية الأولى ببناء مقبرة في كنيسة  
وسننستر فانه لا يمكن اختيار جثمان أشرف من جثمان جرترود بل لتمثيل هؤلاء  
السيدات .



## الهوامش

---

- (1) Burgoyne Elizabeth: Gertrude Bell from her Personal Papers (1914—1926) pp.14—15.
- (2) Foster: The Making of Modern Iraq, pp. 32—5.
- (3) إيرلاند: العراق ، دراسة في تطوره السياسي . ترجمة جعفر خياط (١٩٤٩) ص ٤ — ٥ .
- (4) Foster: ouv. Cit pp. 37—8.
- (5) Wilson, Loyalties, Mesopotamia Vol -1, pp 6—9
- (6) Idid. pp.10—11 : Appendix 1, p. 311.
- (7) Young: The Independent Arab (1933) p.273.
- (8) Burgoyne: Ouv. Cit. p.82.
- (9) Graves: The Life of Sir Percy Cox, p.206.
- (10) Burgoyne: Ouv. Cit, pp.33—43.
- (11) Garnett: Letters of T.E. Lawrence pp.202—3.
- (12) Burgoyne: Ouv. Cit. pp. 38—43.
- (13) Kurds, Turks and Arabs. مؤلف كتاب
- (13A) Burgoyne : Ouv. Cit. p 42.
- (14) Wilson : Ouv. Cit. Vol. I, p. 238.
- الحسنى : تاريخ العراق السياسي الحديث ج١ ص ٨٦ — ٨٨ .
- (15) إيرلاند — خياط : المرجع السابق ذكره ص ٩٩ — ١٠٠
- (16) Wingate Papers—School of Oriental—studies—University of Durham.

(17) Burgoyne: Ouv. Cit. pp. 105—9.

(18) Wingate Papers, Dnrham.

(19) Burgoyne: Ouv. Cit. p. 174.

(20) Philby: Arabian Days p. 193.

(21) Burgoyne: Ouv. Cit. p. 193.

(22) Ibid pp. 204—5.

(23) , , 213—4.

(24) , , 243.

(25) , , 75.



## نصوص ووثائق

